الطرح اللساني و النهوض بمستوى المدرس – قراءة في فكر عبد الرحمان الحاج صالح–

أ.مختار درقاوي

مدخل:

لايشك أحد في أن المثلث التعليمي في البلدان النامية عامة و البلدان العربية خاصة تعترضه مشاكل جد جسيمة وعويصة ، وذلك راجع لأمور عدة ، منها قلة تفهمنا ومعرفتنا للحلول التي اقترحت وطبقت بالفعل في خارج أوطاننا لأجل إصلاح النشء و النهوض بالمستوى العلمي ، ومنها ما هو راجع إلى الوضع الاقتصادي والثقافي والذهني...

وعليه تأكد أن الاستفادة من العلوم الحديثة واستيعابها ،وخصوصا ما له علاقة بالطرح اللساني بات أمرا ضروريا بل و إلزاميا ،قصد تحقيق مد ثقافي وعلمي راقي يحاكي النموذج الغربي ،إذن السؤال والإشكال الذي يشكل بيت القصيد هو كيف نحقق هذا النموذج المبتغى؟ الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى تضافر جهود واحتواء شامل للموقف الراهن.

والإفادة من تجربة وخبرات رجالات المعرفة الذين شهد لهم الجميع بذلك يعد وسيلة من الوسائل التي يمكن أن يستفاد منها ويستضاء بها للخروج من وضع تعليمي يوصف بأنه يعيش تحت أنقاض وأشلاء تصورات رجعية لا تمت بصلة لعصر عرف باجتراح الوسائل والمناهج التعليمية.

انطلاقا من هذا الحل المؤسس ارتأينا أن يكون العالم اللساني عبد الرحمن الحاج صالح نقطة البدء، ولا نشك بأن مسيرته العلمية والعملية غنية وحافلة وثرية بالأفكار التي يمكن أن تكون نبراسا يضيء لنا الطريق، واختيارنا له راجع لعدة أمور، منها أنه رجل خصيب المعرفة، مؤطر بتراثه ومثقل بحاضره، وكذلك كونه أحد النقاد والمنظرين الموجودين والمعروفين على الساحة العلمية العربية. وأيضا لأن تجربته الطويلة في التعليم والتمرس قد يكونان سببين وجيهين، إذ غالبا ما تقتفي التجربة جبر النقص الملاحظ وتصويب المسار.

ولكن لا بد أن نثبت هنا شيئا مهما، وهو أن فحص المقروء، والمقروء هنا الوضع التعليمي، لابد أن لا ننطلق فيه من الكل الجاهز" لأن الكل الجاهز يضلل القارئ" (1)،وإنما نفضل الانطلاق من الجزء، بمعنى أن المثلث التعليمي لابد أن لا ينظر إليه عند إرادة المعالجة بوصفه كتلة، وإنما ينبغي أن يفكك. ولذلك ذهب الجابري إلى: " أن فحص

المقروء عندما يتم بصورة منهجية صارمة قد تكون أولى نتائجه دفع القارئ إلى مراجعة أدوات عمله".

من هنا ظهر لنا التركيز على الواسطة وأداة التبليغ، وأقصد بذلك المدرس ،فهو واسطة بين النص و المتعلم ،وهو أيضا الآلية الدافعة والمحركة ،والمؤطر المخرج للطالب من الذات الصامتة إلى الذات الفاعلة.ومادام أنه حلقة وصل فحري بنا أن نبصره ونوغل النظر في آليات إيصاله للمعرفة، ونتساءل ما مدى استنجاده ونهيله من الثقافة الآنية، التي حملت على عاتقها مهام استئصال عوائق التبليغ، وذلك عن طريق وضع مناهج وآليات جديدة تكفل لنا مهمة التواصل.

ضرورة الإلمام بما جد في صعيد البحث اللساني:

يشبه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح المدرس الذي يجهل ما ينتجه العصر من معارف ومستجدات بأستاذ الفيزياء الذي يجهل أو يتجاهل تماما الاكتشافات التي جدت في تركيب الذرة ونواتها، وأن العناصر تفوق المائة وليست أربعة كما كان يعتقد الأوائل. (3)

فمنطق التجدد والتولد في العلوم والمناهج أمر مؤكد، وضرورة الإفادة مطلب ضروري، فلا ينبغي للإنسان أن يكون أسيرا لأفكار وتصورات ومناهج قديمة بل عليه أن يواكب ويساير متطلبات العصر " فليس من المحتم علينا أن نتقوقع وننزوي بدعوى أننا بعيدون كل البعد عن تلك المكانة المرموقة التي حظي بها غيرنا في عصرنا الحاضر، إذ من الممكن جدا أن نكون على علم –على الأقل– بالنظريات العلمية ومناهج التحليل والوسائل المختلفة التي وضعتها هذه البلدان لتحقيق أغراضها، ولحل مشاكلنا ولا سيما تلك التي أخرجتها في أحدث صورها، في علوم اللسان وصناعة تعليم اللغات". (4)

كما لابد أن نثبت شيئا مهما هنا، وهو أن عبد الرحمان الحاج صالح إذ يؤكد على ضرورة الاستنجاد والاستعانة بما جد وتولد في الفكر الغربي، فإنه يدعو رجل العلم إلى التأني و التأمل في هذه النظريات وتلك المناهج (5). فتقبلها هكذا جزافا دون أي نظر فيها وأي تمحيص قد يكون سببا مباشرا إلى نبذ كل ما أبدعه علماؤنا قديما في علوم اللسان.

انطلاقا من هذا التصور المشروع يمكن الإقرار بأن على المدرس عند إطلاعه على كل ماجد وتولد من نظريات ومناهج، فعليه أن لا يتهاون في الشق الثاني من المعادلة، وهو الأخذ بعين الاعتبار ،لا الانتقادات البناءة التي تعرضت لها في مكان نشوئها فحسب، بل حتى الاعتراضات والتحفظات التي يمكن أن يبديها إزاءها العالم النزيه غير المتعصب المثقل بالمعرفة، وذلك لتلافي الأحكام المتسرعة وتحاشي التقليد الأعمى.

من بين النظريات التي يستعان بها:

لعل من أهم النظريات التي ينبغي على المدرس أن يستعين بها في ميدان التعليم والتعلم الآتي(6):

1 –اللسانيات التطبيقية linguistique appliqué :

وهي في الحقيقة شعبة من شعب أحد العلوم الذي يسمى الآن بعلم أو صناعة تعليم اللغات didactique linguistique. والاختصاصيون يفرقون بين اللسانيات التطبيقية والبحث في منهجية تعليم اللغات méthodologie ، فاللسانيات التطبيقية تبحث في المادة اللغوية التي يحتوي عليها الدرس اللغوي من جهة، وعلم التدريس يهتم بمناهج اكتساب الملكة اللغوية، أي أن التمييز الحاصل بينهما مبني على السؤالين الآتيين:ماذا يجب أن نعلم من اللغة؟ وكيف نعلم؟ حيث تمثل الإجابة عن السؤال الأول موضوعا للسانيات التطبيقية، في حين الإجابة عن السؤال الثاني تشكل موضوعا لعلم تدريس اللغات.

2 – لعملية الخطاب عناصر وأوصاف معينة ضبطت في عصرنا الحاضر بمقاييس وقوانين. ومجموع هذه القوانين يكون ما يسمى بنظرية الإفادة أو التبليغ communication or information theory. فبالاعتماد على ما أتت به من مفاهيم جديدة حول التبليغ والإعلام يستطيع اللساني أن يقيس بدقة نجاعة اللغة المستعملة (في التعليم والإعلام وغيرهما) من حيث قدرتها على الإفادة والتواصل. وبفضل هذه النظرية استطاع علماء اللسان أن يحددوا مفهوم الفائدة بإدخال الكم عليها واتخذوا وحدة مقياسية سموها البيت. فصارت بذلك مفهوما علميا صرفا ومدارها على درجة احتمال المخاطب لمضمون الخبر المنقول إليه.

3 –أكدنا آنفا ضرورة الاستفادة من نظرية صناعة تعليم اللغات، ولكن نود أن نثبت هنا أن هذه النظرية لم تنطلق من خواء ولا من بيداء وإنما تأثرت واكتسبت الكثير من المفاهيم والأبجديات من نظريتين أحدثتا ثورة في البحث اللساني قاطبة وهما:

أ –النظرية البنوية (structuralisme) وتهتم بالبنى اللغوية.

ب –النظرية التحويلية التوليدية لتشومسكي: قامت هذه النظرية على استحضار الجانب الغائب في النظرية الأولى، أي أن موضوعها المباشر الظواهر المتعلقة بالقدرة على الكلام وعلى الدلالة، فهي تتناول الكلام من حيث كيفية إحداثه وكيفية تحققه للعبارات المختلفة اللامتناهية عن طريق المتناهي من الوحدات.

وتحاول نظرية صناعة تعليم اللغات أن تكشف عن حقيقة وهي أن بين البنى اللغوية وكيفية اكتسابها علاقات ثابتة وقوانين خفية يجب أن يسدل الستار عنها وأن يتم عرضها وصياغتها على ما تتطلبه الصياغة العلمية الدقيقة.

وما لابد من ذكره في هذا المقام أن عبد الرحمان إذ يؤكد على حتمية إدراك المدرس لهذه الحقائق والنظريات وكذا أنماط التواصل، فهو يؤكد على شيء مهم وهو أن النظريات اللسانية في ميدان التعليم لا تشكل بمفردها مشروعا ناجحا، بل عليها أن تستفيد من نظريات الباحث في علم التربية وعلم النفس وغيـــــــر ذلك " فالبحث الجماعي المتفاعل الممنهج المنتظم هو الذي يكفل في هذه الميادين التطبيقية (المتداخلة) النتائج الايجابية والحلول الناجعة" (7) . فالتجربة المفردة بمعزل عن غيرها تظل تجربة قاصرة ومتواضعة.

شروط المدرس والمبادئ التعليمية العامة:

مدرس اللغة ينبغي أن تتوفر فيه شروط ثلاثة وهي:

1 -الملكة اللغوية الأصيلة (8): أي اكتساب الملكة اللغوية الأساسية التي سيود تبليغها إلى المتعلم.

2 -أدنى كمية من المعلومات النظرية في اللسان: أن يكون له تصور سليم للغة حتى يحكم تعليمها، ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا إذا اطلع على أهم ما أثبتته اللسانيات العامة واللسانيات العربية بصفة خاصة.

3 - ملكة تعليم اللغة وهي الهدف الأسمى بالنسبة له، ولا يمكن أن تتحقق هذه الملكة إلا باستيفاء الشرطين السابقين، وحقيقة هذه الملكة يكمن في إطلاع على محصول البحث اللساني والتربوي وتطبيقه إياه بكيفية عملية منتظمة ومتواصلة.

أمّا المبادئ ، فإن كل طريقة تعليمية تتصف بأدنى شيء من الجديّة، لابد أن يكون أصحابها قد اعتبروا فيها خمسة أشياء (9):

أ -الانتقاء الممعن والمثالي للعناصر.

ب - التخطيط الدقيق لهذه العناصر أي توزيعها المنظم.

ج - ترتيبها ووضعها في موضعها.

د - اختيار كيفية ناجعة لعرضها على المتعلم.

ه - اختيار كيفية لا تقل نجاعة عن السابقة لترسيخها في ذهن المتعلم.

المزاوجة بين النظري والتطبيق:

تأكد في البيئة العلمية أن الجانب النظري في الغالب لا يؤتي أكله إلاّ إذا استندنا إلى الجانب التطبيقي. فهذا الأخير هو الكاشف والمصباح المنير الذي يجلي ما اكتنف الجانب الأول من غموض. ولذلك نلفي عبد الرحمان يركز عليه ويلح على ضرورة التفرقة بينهما يقول " ينبغي على المصلحين أن يميزوا بين ما هو علم وما هو تطبيق، فالعلم ينبغي أن يكون معقدا مجردا عميقا وتلك هي طبيعته، والتطبيق له ينبغي أن تكون

ثمراته سهلة المنال ،أو على الأقل أن تناسب طبيعة القطاع من النشاط الإنساني" . وقد خلص إلى نتيجة مهمة مؤداها:" الغلط الذي يرتكبه البعض، هو فصلهم الفصل المطلق بين البحث النظري والبحث التطبيقي". وعليه يمكن القول أن المزاوجة بينهما أمر ضروري، مع التأكيد على شيء مهم، وهو أن الجانب العلمي يتسم بالتعقيد والتجرد، أما الجانب التطبيقي فطينته مبنية على السهولة والإبراز والاستيعاب بكشف مواطن الغموض والتعقيد.

كانت هذه قراءة لا بمفهومها النقدي وإنما بمفهومها التفسيري ،حينما تعكف على مدونة بعينها فتكشف وتختزل المعطى المعرفي، وتحاول ترسيخ أفكاره ومبادئه في آلية التواصل، لا لشيء إنما للنهوض بمستوى المدرس وبمنظومتنا التعليمية. و لكن لا بد أن نؤكد شيئا وهو إن كنا قد وجهنا الحديث إلى المعلم. فإن الضلعين الآخرين للمثلث التعليمي يحتاجان بدورهما إلى وقفة وقراءة متأنية، فتوجيه الحديث إلى أحد أركان العملية التعليمية لا يعد تعيينا لمكمن الداء و إنّما يعد توجها منهجيا مقتفى، إذ نعتقد أن الحديث عن المنظومة التعليمية ككل (النص، المتعلم، المعلم) من أجل الوقوف على الثغرات الملاحظة منهج ليس بسليم، لأن البدء بالكل يظلل القارئ. وإنما نفضل الانطلاق من الجزء لأن فيه احتواء للموقف ونفعا وعلاجا لموطن الداء.

---

(1) نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، ط2، سنة1993، الدار البيضاء، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 17.

(3) ينظر بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمان الحاج صالح،موفم للنشر، الجزائر2007، ص 181.

(4) المصدر نفسه، ص 173.

(5) المصدر نفسه، ص 175.

(6) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمان الحاج صالح ،موفم للنشر، الجزائر 2007، ج 1 ص 191. وينظر بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص187.

(7) بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 180.

(8) ينظر المصدر نفسه، ص199-200.

(9) ينظر المصدر نفسه، ص 224.

(10) المصدر نفسه، ص 178.